

القرآن في السودان : منذ فجر الإسلام حتى اليوم

أ. د. أحمد محمد اسماعيل البيلي

لقد وصل الإسلام والقرآن بلاد النوبة شمالي السودان وادي النيل قبل أيام ولاية الصحابي (عبد الله بن سعد بن أبي السرح) (ت 59 هـ) . وفي أثناء ولايته ، دارت بينه وبين ملك بلاد النوبة (قَلِيدْرُث) معارك ، حالت بين دخول الجيش الإسلامي بلاد النوبة ، ولكن أبرمت اتفاقية بين الدولتين سنة (31 هـ) وعرفت في المصادر بأنها معاهدة هدنة . (1) وقد اقتضى تطبيق هذه الاتفاقية من وإلى مصر وملك بلاد النوبة . أن يكون دخول المسلمين بلاد

(*) أ. د. أحمد محمد اسماعيل البيلي عضو مجمع الفقه الإسلامي .

(1) وعندما تشير إليها المراجع الإسلامية تذكر كلمة (بقط) والقاف والطاء حرفان مقتطعان من الكلمة اللاتينية (PACTUM) ومعناها المعاهدة وقد انتقل هذا الجزء اللغوي اللاتيني إلى بعض اللغات الأوربية . وتارة يكتبون بـ (PACT) وتارة يستعملون (agreement) . وقد يتوهم بعض الكاتبين أن " بقط " هذه عربية اشتقاقاً ودلالة والصواب غير ذلك ، وهو أن أصل الكلمة لاتيني ، ودخل في اللغتين الأفرنجية والرومانية ، ثم بعض اللغات الأوربية . ومما ينبغي الانتباه إليه ، أن كلمة (بقط) توجد في اللغة العربية وفي بعض اللهجات العربية ، بفتح القاف أيضاً . فتتطوّر الكلمة (بقط) والحرف الأول في اللهجتين (باء = B) مع أن الحرف الأول في الكلمة اللاتينية (P = ب) وهو صوت لا تعرفه أي قبيلة عربية . و (بقط) في اللغة العربية لا يدل على الاتفاق والتعاهد . لا بين فردين ولا بين دولتين . وله دلالات كثيرة . ومنها التفرق والتشتت ، وعليه قول الشاعر :

(رأيت تميماً قد أضاعوا أمورها طوائف) فَمَهْمُ بَقَطٍ فِي الْأَرْضِ فَرْتُ

النوبة مصرحاً به ، أياً كانت صفة الداخل . ولما شع أمر الأتفاقية بين الناس ، بدأ المسلمون في مصر ، أفراداً وجماعات يتقاطرون على بلاد النوبة ، ومنهم التجار والحرفيون والفقهاء وحفاظ القرآن ، وبطبيعة الحال أن تكون مع بعض الفقهاء وحفاظ القرآن مصاحف مخطوطة . ولما كثرت أعداد المسلمين في بلاد النوبة ، واختلطوا بالتزواج ، وبنوا عدداً من المساجد ، ألقوا بهذه المساجد مدارس القرآن (الخَلَوَات) . ودخول الدعوة الإسلامية في بلاد النوبة ، ورؤية المسلمين للمصاحف المخطوطة وانتشار الدعاة للإسلام في هذه البلاد . كل هذا بدأ أثناء خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه .

وظل المسلمون يتكاثرون عن طريق القادمين الجدد ، وعن طرق التزواج بين الذكور العرب والإناث المسيحيات النوبيات . ومضى شأن المسلمين والإسلام وانتشاره في هذه البلاد في العهد الأموي والعباسي على النحو الذي كان عليه أثناء خلافة عثمان . فإنك لا تمر اليوم (1422 هـ) بأي قرية أو مدينة بالولايات الشمالية ، إلا وجدت مسجداً ، وتجد بجانبه (خلوة) لتعليم القرآن ، وصار أهل النوبة كافة ، لا تجد بينهم نصرانياً واحداً في يومنا هذا . وقد أطلق شيوخ القرآن كلمة (خلوة) على مدرسة القرآن : لأن شيخ الخلوة يختلي فيها بتلاميذه الذين يعلمهم القرآن ، كتابة وقراءة وحفظاً ، وهو في أثناء ذلك يختلي بهم عن سواهم .

والعرب الذين دخلوا في فترات مختلفة ، كانوا أول أمرهم قبائل متفرقة .
ولما اتحدوا مع المسلمين من غير العرب . أقاموا مملكة إسلامية ، وجعلوا
عاصمتها مدينة (سنار) وأصبح السودانيون يعرفون يومئذٍ بالسناريين .⁽²⁾
وقد قضى محمد علي باشا ، والي مصر في وقته ، على هذه المملكة في الربع
الأول من القرن التاسع عشر . وصار السودان تابعاً لمصر سياسياً وإدارياً .
ومصر يومئذٍ كانت تابع لتركيا ، فقد كانت (أستنبول) عاصمة الخلافة
الإسلامية . وكان من المشاهد في عهد مملكة سنّار ، أن يكون بجانب كل جامع
خلوة لتعليم القرآن الكريم . وصار نسخ المصاحف مهنة يحترفها الخطاطون
الحافظون للقرآن . وخلال ضم السودان لمصر أثناء ولاية محمد علي باشا ،
أدخلت الحكومة نظام المدارس الحديثة فأنشأت الحكومة مدارس أولية في بعض
المدن ثم مدارس وسطى وكان من جراء ذلك أن ضعف الإقبال على
خلوات القرآن .

وفي عهد الحكومة الإسلامية المهديّة ، (1885 – 1898 م) عاد الإهتمام
بالقرآن وخلواته ومعلميه ، إلى درجة إعفاء شيخ الخلوة من الإلتحاق بالجيش .
وفي الفترة التي كان السودان تحت " الحكم الثنائي " (1898 – 1955 م)
أهمل شأن القرآن ومعلميه وتلاميذه واستطاع الإنجليز أن يحولوا بعض

⁽²⁾ وفي الأزهر الشريف رواق يعرف برواق (السنّارين) وفي المدينة المنورة وحدة أوقاف باسم مملكة (سنار) .

خلوات القرآن إلى مدارس صغرى ، يكتفى فيها بحفظ الأجزاء الثلاثة الأخيرة ، وشيء من الحساب والخط ، وبعض أبواب الفقه الإسلامي ، وأقتضت سياسة بريطانيا أن تحارب اللغة العربية ، والإسلام والقرآن ، وتحول بين الإسلام وانتشاره وسط أبناء الجنوب الوثنيين . ومن عناصر هذه السياسة أن حاولوا تحفيف منابع التي يأتي منها القرآن وحافظوه وهي خلوات القرآن ، والجوامع التي تدرس فيها علوم الإسلام . ومن صور هذه المحاربة ، أن يكون التعيين في الدوائر الحكومية قاصراً على خريجي المدارس الوسطى ، ثم الثانوية فيما بعد . أما من كان من حفظة القرآن ، أو من خريجي الأزهر والمعاهد الدينية السودانية فلا مجال له في وظائف الحكومة . ومن كان ذا حظ من هؤلاء يجد مجالاً في المحاكم الشرعية ، أو إماماً للصلاة في جامع ، أو مدرساً للغة العربية والدين الإسلامي في المدارس الأهلية . ثم بدا للبريطانيين ، بعد عقدين من الإحتلال ، أن العناية بخلوات القرآن مما يجب فيهم الشعب السوداني ، وأن الخلوات مدارس نحو الأمية . عندئذٍ شرعوا في الاهتمام بالخلوات وخلعوا عليها اسماً جديداً " الخلوات النظامية " وهي الخلوات التي يقتصر منهجها على تحفيظ بعض أجزاء من القرآن ، مع شيء من الأحكام الفقهية وأحكام العقائد ، ومبادئ الحساب ، والخط ، وشيء من علمي التاريخ والجغرافيا ، وكرة القدم في بعضها .

وبدئ في تطبيق هذا النظام سنة 1917م . وعين الشيخ بابكر بدري رحمة الله (ت 1954م) مفتشاً لخلوات القرآن . وظل بعد تكليفه بهذه المهمة يذرع السودان ، طولاً وعرضاً ، ويرفع تقاريره لمصلحة المعارف (وزارة التربية فيما بعد) بأسماء الخلوات التي زارها ومشائخها ، ومستوياتهم ، ويضمن تقريره ما يوصي به نحو كل خلوة ، من إعانة بعض مالياً ، وحرمان بعض . وقد احتوى كتابه (تاريخ حياتي) في الجزء الثاني ، إشارات واضحة لما قام به نحو الخلوات النظامية في المديرية الشمالية .

وإلى جانب ما سمي " بالخلوات النظامية " فقد سار بعض الخلوات على منهجها التقليدي المعروف ، حفظ القرآن كله ، وبعض المتون المتعلقة بالقراءات والتجويد ، ولم يوافق أصحابها والمشرفون عليها ، أن يضاف إلى حفظ القرآن شيء آخر ، ولم يتعرض المختلون لهذا النوع من الخلوات ، ولم يقدموا لمشائخها معونات مالية ولا عينية . ورعاها الشعب نفسه ، بأساليب مختلفة ، من إقليم لأقليم ولهذا لم ينعدم حفظ القرآن الكريم من السودان طوال فترة الإحتلال (1898-1955م) .

وبعد استقلال السودان عام (1956م) تجدد الإهتمام بخلوات القرآن ومعلميها وطلابها على النحو الآتي بيانه . وبدأ هذا الإهتمام شعبياً وحكومياً . أما شعبياً ، فقد سارع بعض ذوي الغيرة على الدين الإسلامي إلى إنشاء

خلوات جديدة لتحفيظ القرآن . كما أنشأ بعض العلماء معاهد دينية وسطى ، على غرار المعاهد الدينية الوسطى التي كانت وزارة الشؤون الدينية قد أنشأتها . أما الاهتمام الرسمي الحكومي بالقرآن وشؤونه ، فقد بدأ سنة 1965م عندما تولى وزارة التعليم السيد بدوي مصطفى الشيخ رحمه الله (ت : 1998/3/17م) .

فقد قرر مجلس الوزراء بتوجيه من هذا الوزير ، القرارات الثلاثة

الآتي ذكرها :

1. جعل الدين مادة أساسية في امتحان الشهادة الثانوية ، والامتحان فيه اجباري .

2. قيام (جامعة أم درمان الإسلامية) وقد كانت في الطور السابق " كلية الدراسات العربية والإسلامية " . أما الطور الأول فقد كان يمثل " المعهد العلمي " بأقسامه الثلاثة : الابتدائي ، والثانوي ، والعالى . وقد كان " المعهد العالى " قد أنشئ سنة 1912م – على نمط الدراسة في " الأزهر الشريف " .

3. قيام مؤسسة لرعاية شؤون القرآن الكريم ، وقد أصدر مجلس الوزراء هذه القرارات في (1965/7/7م) وقد وضع لهذه المؤسسة نظام تسيير وفقه في

شؤونها الإدارية والمالية . وشكل لها مجلس أمناء ، يرأسه السيد بدوي مصطفى رحمه الله .

إختار المجلس لإدارة هذه المؤسسة أحد رجال وزارة التربية والتعليم ووافقت الوزارة على أن تنتدب لإدارة هذه المؤسسة كاتب هذا البحث ، وظل مديراً لها (من 1966 إلى 1974) ثم ذهب إلى دولة الإمارات العربية المتحدة ، مستشاراً علمياً بدائرة القضاء الشرعي . ولما أنشئت " جامعة القرآن الكريم " سنة 1990 - طلب إليه أن يتولى تدريس مادة " توجيه قراءات القرآن " ولم يزل بها . وبعد قيام هذه المؤسسة ، عينت الإدارة لكل ولاية مفتشاً لخلوات القرآن (مدارس تحفيظ القرآن) يزورها ويرفع للإدارة تقارير يضمنها توصياته التي يراها . وقد وضعت الخلوات يومئذٍ في درجات ثلاث : أولى وثانية وثالثة . وتقرر المعونة المالية الحكومية وفق الدرجة ، وكانت المعونات سنوية . أنشأت المؤسسة خمسة معاهد وسطى ، ليلتحق بها حفظة القرآن ، ومقرراتها في جميع المواد هي المواد التي كانت مقررة على طلبة المدارس الوسطى . ما عدا المواد الخاصة باللغة العربية والدين الإسلامي والتجويد ، فطلاب هذه المعاهد يدرسونها بالكتب المقررة في المعاهد الدينية الوسطى . ويضاف إليها علم التجويد نظرياً وتطبيقياً . ثم أنشأت المؤسسة معهداً ثانوياً بالخرطوم ، ليلتحق به الخريجون من تلك المعاهد . سمي " معهد شروني لعلوم القرآن " باسم الشخص الذي كان قد بناه بماله الخاص . ومدة الدراسة به خمسة أعوام ، ويمنح

خريجه (دبلوم القراءات) وقد صار هذا الدبلوم من الشهادات التي تؤهل حامله للإلتحاق بكلية القرآن الكريم بجامعة القرآن الكريم . كما أنشأت المؤسسة مركزين لتدريب حفظة القرآن الكريم على التجويد ، ليلتحق به مشائخ الحلوات الذين لم يكونوا قد درسوا التجويد . ويصحح الرواية التي حفظ القرآن بها لأنه تبين للمفتشين ، أن بعض الشيوخ يخلط بين رواية وأخرى والروايات القرآنية المنتشرة في السودان هي :

1. رواية الدوري ، لقراءة أبي عمر بن العلاء .

2. ورواية ورش عن نافع .

3. ورواية حفص عن عاصم .

ورأت المؤسسة كذلك قيام مهرجان سنوي للمسابقة في حفظ القرآن الكريم . ورؤي يومئذٍ (1974م) أن تقام مسابقات محلية في الولايات . وأن تبعث كل ولاية الأول والثاني والثالث ، للمنافسة على مستوى الجمهورية في الخرطوم . وتنتهي التصفية النهائية في الخرطوم إلى العشرة الأوائل ولهم جوائز مالية . ثم يعودون إلى ولاياتهم .

ومما زاد الناس في السودان إقبالاً على حفظ القرآن الكريم ، أن رئيس الجمهورية الفريق (عمر حسن أحمد البشير) كان قد أصدر قراراً جمهورياً ، بأن حافظ القرآن إذا عين في أحد مرافق الدولة ، يعين في بداية الكادر الجامعي ، ولو لم يكن معه إلا حفظ القرآن ، وقد طبق هذا القرار الآن (جامعة القرآن

الكريم والعلوم الإسلامية) ولما استولت ثورة الإنقاذ على الحكم في (1989/6/30 م) قررت قيام جامعة باسم (جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية) ووضع للجامعة قانون . وضمت الجامعة بعد قيامها " المعهد العلمي العالي " الذي كان قائماً . ورؤي أن تكون الكليات على النحو الآتي :

1. كلية القرآن الكريم .
2. كلية الشريعة .
3. كلية اللغة العربية .
4. كلية الدعوة والإعلام .
5. كلية التربية .
6. كلية الدراسات العليا .

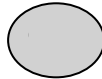
وللجامعة مركز خاص بالبنات يضم جميع الكليات الخمس المتقدم ذكرها . ومقرراتها ماثلة تماماً للمقررات في كليات البنين . والالتحاق بإحدى كليات الجامعة ، شرطه الحصول على الشهادة الثانوية السودانية ، أو ما يعادلها ، وحفظ ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم ، ما عدا كلية القرآن ، فالمقدار المطلوب حفظه من القرآن عشرة أجزاء . وللجامعة القرآن دليل عام . ولكل كلية دليل خاص . وللجامعة فروع في بعض الولايات ، الشمالية منها والجنوبية . وكانت الدولة

قد وضعت سنة (1973م) قانوناً لمراقبة المصاحف المطبوعة وأجزائها . كما أنشأت لجنة عليا لمراقبة المصاحف وفقاً لمواد ذلك القانون .

لعلي بما ذكرته في هذه الصفحات ، قد جعلت القاريء الكريم ، يقف بصورة عامة واضحة المعالم ، بينة القسمات ، عن مسار القرآن الكريم في السودان وادي النيل . منذ أن بدأ العرب المسلمون يقدون إليه زرافات ووحادانا ، ومنذ أن بدأوا ينشئون خلوات القرآن (مدارس تحفيظه) ، حتى أقاموا جامعة قاصرة على القرآن والعلوم الإسلامية . وهي اليوم (1423هـ - 2002م) تقوم شاخحة على الضفة اليسى لنهر النيل بمدينة أم درمان . تضم في كلياتها اليوم نحو (17.500) من طلبة وطالبات . ومنهم من جاء من الأقطار العربية ومنهم من جاء من أوروبا ومنهم من جاء من الأقطار الأفريقية . بعضهم جاء للحصول على الشهادة الجامعية الأولى (البكالوريوس) وبعضهم جاء للحصول على " الماجستير " أو " الدكتوراة " .

القرآن في السودان : منذ فجر الإسلام حتى اليوم
د. أحمد اسماعيل البيلي

– 1427 هـ / 2006 م



مجلة كلية القرآن الكريم العدد الأول